

النظام البلاغي الجديد في قراءة الخطاب الفلسفي

The New Rhetorical System in Reading Philosophical Discourse

بلقناديل عبد القادر

فلسفة جامعة أبو بكر بلقايد- تلمسان – (الجزائر)

* BELKENADIL Abdelkader

philosophietlemcen@gmail.com

تاريخ النشر: 2023/05/05

تاريخ القبول: 2022/04/05

تاريخ الإرسال: 2021/09/17

ملخص: نفهم من وراء الحاجة: تقنية الإفحام والإقناع- الإقناع بواسطة الخطاب، وطريقة في المداولة والمناقشة. إنه فن حُسن التفكير والقول في ما هو اعتباطي (شبه حقيقي). هكذا تصوّره (أرسطو) في "الموضعيّات" و"البلاغيّات" ... أما الدّعوى التي نريد تبينها على صفحات هذه المقالة من خلال تكوين فهم أصيل لمنطق الحاجة الفلسفية؛ هي التأكيد على أهمية النظام الحاكم في صياغة الحاجة، بعدما أُعيد صياغته ضمن البلاغيات الجديدة لـ (بيرلمان- تينكا)، التي أصبحت في متناول الفلاسفة المعاصرين وهذه هي جوهر إشكالية مقالتنا، وما يبدو لنا كاستنتاج عام هو التأكيد على أنّ مهارة التحكّم في نظام الخطاب البلاغي مفيدة جدّاً، ليس فقط للفلاسفة وهم يصوغون حججهم الشبّه- موضوعيّة، إنّما تفيد أيضاً الجماهير المتلقية للخطاب الفلسفي. في تبين أنّ التقنية البلاغيّة- الججاجيّة: قد طريقة جيّدة لحُسن قراءة وفهم الخطاب الفلسفي.

الكلمات المفتاحية: جُهور الخطاب؛ الحاجة؛ العقل البلاغي؛ الإذعانية، التبريرية.

Abstract: Understand the argument behind the technique of charity and persuasion – conviction by rhetoric, and a method of deliberation and discussion. It is the art of good thinking and saying about what is considered (semi-real). This is how (Aristotle) envisioned in "subjectivities" and "rhetoric" ... As for the case that we want to outline on the pages of this article by forming an original understanding of the logic of the philosophical argument; To (Perlman- Tyteca), which has become accessible to philosophers: What seems to us is that the skill of controlling the rhetorical discourse system is very beneficial, not only for philosophers as they formulate their likeness of objectivity, but also benefit the recipient audiences of philosophical discourse. In showing that rhetoric-pilgrimage technology may be a good way to better read and understand philosophical discourse..

Keywords: Public discourse ; The Argument ; Rhetorical mind; Admissibility; Apologetics

مقدمة:

سنة 1958م، تمّ نشر كتابين أثّرن باستقلال عن بعضهما البعض؛ كتابان رائدان بطريقتهما المميّزة في مواجهة التّمودج المعرفي السائد طيلة أكثر من قرن ونصف. لقد نهضا يدعوان معاً - بمقاربتين مختلفتين ومتقاطعتين - إلى الدّخول في ما يُطلق عليه اسم المنعطف البلاغيّ الكبير، الذي يطرح فيه الكاتبان أمام فلاسفة هذا العصر ضرورة القطيعة التّهابيّة مع التّمودج المعرفي السائد في العالم الحديث، القائم على الرّؤية المُستمدّة من النزعتين؛ العلمية الوضعية والعقلانية النّظرية القائلتان معاً، بوجود اعتماد الاستدلال البرهاني الرّياضيّاتي-التجريبي في حقل الفلسفة ومجال الأكسيولوجيا على الخصوص. في مقابل ذلك، أخذاً يطالبان معاً، بضرورة تجديد الاهتمام بمبحث البلاغيات الإقناعية وعلى الخصوص تقنيات المُحاجّة المتداولة ضمن اللغة العاديّة في حياة الإنسان وهوّ في مقام تواصلٍ ما. بذلك أُستُعيد من جديد، ولصالح الدّرس الفلسفيّ بالمعنى الواسع، مبحث النّظرية المنطقية في صورة نظرية عامّة في المُحاجّة:

- ظهر الكتاب الأول (الطبعة الأولى سنة 1958 - الخامسة سنة 2000) في سياق الفلسفة القاريّة، تحت عنوان "المُفَصَّل في المُحاجّة: البلاغيات الجديدة" للفيلسوف شاييم بيرلمان (1912 - 1984) ومُساعِدَتُهُ المتخصّصة في المناهج الإحصائية والعلوم الإنسانية (لُوسِيّ أَلْبَرْخْتْ تَيْتْكا 1899 - 1987)
- ظهر الكتاب الآخر في سياق الفلسفة الأنغلوسكسونيّة، تحت عنوان "استِعمالات المُحاجّة" للفيلسوف (ستيفن إدلسن تولمين 1922-2009)

تعود هذه المُقاربة البلاغية للخطاب الفلسفيّ باعتباره فعلاً لغويّاً إقناعيّاً، إلى انشغلات مدرسة البلاغيات الجديدة ل(بيرلمان- تيتكا) على الخصوص، بعودتها الجريئة إلى استثمار منابع اللّغة الطّبيعيّة عند الرّجوع إلى وظيفتها الحجاجيّة والتواصلية، متجاوزة بذلك النزعة الاختزالية المُضمرة في المُقاربة الأكسيوميّة والصّورانيّة للدّلل المنطقي المحض في التّحقّق من صلاحية الأحكام الفلسفية. في المقابل تعمل على طرح تصوّر مُوسّع جدّاً لمفهوم المنطق باعتباره نظريّة حجاجيّة عامّة: مفهوم يُحيط بكافّة وجوه وأنواع المعقوليّات قاطبة، في نطاق ما يُعرف اليوم باسم إمراطوريّة البلاغيات

التي يُفترض أنها قد زودتنا، في الوقت الراهن، بتصوّر جديد عن شروط تكوين/تلقّي النظام الخطابي المُقنع في عملية تداول المعرفة الفلسفيّة.

ينصبُّ اشتغالنا في هذا البحث على إثارة مشكلة الإقناع-الإقناع لدى الجمهور المتلقّي للخطاب الفلسفي أو ما يُسمى عند المتخصّصين اليوم؛ مشكلة المتلقّي الإيجابي للخطاب الفلسفي؛ أي كل "من..." وكل "ما..." يدخل في مقام إنتاج وقراءة الخطاب الفلسفي. وفي واقع الحال، لا بدّ من القول أنّ الاختصاص العتيق، الوحيد الذي اشتهر فيه الاهتمام بدراسة وتحليل هذه المشكلة، هو البلاغيّات فقط:

إنّ الخطاب الفلسفي – تماماً كأيّ خطاب بلاغيّ آخر- يقوم على نشاط من التفاعل الداخليّ/البينيّ، لأنه يتكوّن ويتطوّر بشكل تدريجيّ، تبعاً للمعارف التي يرسلها الخطيب-الفيلسوف؛ إضافة إلى نظام المُحاجة الذي يكون الهدف منه، العمل، شيئاً فشيئاً، على تعديل القرار المُرتقب من القارئ-المتلقّي الضمّنيّ، عبر الخطاب: بناءً عليه يُفترض أن يظلّ المتلقّي-القارئ نشيطاً وفعالاً، والمُتوقّع منه الاستجابة لما يُلقى في حضرته، على اعتبار أنه يمثّل القاضي، صاحب الحكم النافذ في أمر النزاع القائم.

في الواقع، إننا ونحن مع البلاغيّات الجديدة، نُعيد اكتشاف هذه المادة النصّية المُسيّئة تماماً من طرف الفلاسفة المُحدّثين، ونحن نُعيد امتلاكها من جديد في سياق الفكر العربيّ المُعاصر، نكون قد بادرنّا من جهتنا قدر المُستطاع مساهمين، في الدّعوة إلى اخراج الدّرس الفلسفيّ من سياجه الإختزاليّ-الصّوريّ المُضيق الذي ورثناه عن مذهبيّ العقلانية العظمى والوضعية الإمبريقية معاً، بحجّة اعتمادهما النّمّوزج العلميّ-الرياضيّاتيّ الصّارم، وهذا بالفعل ما قام به بعض المنظّرين الغربيّين المُحدّثين في مجال المُحاجة؛ هؤلاء الذين سنقوم بتتبّع خطاهم لاستعادة ذلك المسار.

يُراهن الباحث في هذه المقالة، على المساهمة بفرضيّة، مفادها أنّ اكتساب كفاءة التحليل البلاغيّ للخطاب، وفقاً "لأورغانون" (بيرلمان- تيتكا)، هو ما سيمكّننا – نحن الباحثين في مجال الفلسفة والدراسات الإنسانية- من تحليل مقام القارئ-المتلقّي للخطاب، وأنّ هذه الكفاءة المنهجية هي ما يسمح لنا الاطلاع بشكل أفضل على آليات فهم كافّة أنواع الأنظمة الحجاجية المحمّولة على الخطاب. كما تساعدنا أيضاً، على رصد الجمهور الذي يتلقّى أو يُفتض أنه سيتلقّى مُستقبلاً هذا الخطاب أو ذاك. هي ذي الدعوى التي رُمنا الدِّفاع عنها عبر صفحات هذه المقالة: ليست المشكلة في

إثبات، أنه من الضروريّ اتقان مادّة البلاغيات لكي نمارس التفلسّف على أحسن وجه – مع أنّ هذا أمر وارد- إنّما المشكلة في كيفية التأكّد مما إذا كانت هذه البلاغيّات الجديدة مفيدة وفعّالة في إنتاج وتلقّي الرّوح الحجاجيّ في الخطاب الفلسفي، لتكون بذلك قادرة على جعل الفيلسوف-الباحث متمكنا من تحديد ملامح الجمهور الذي يتوجّه إليه بخطابه؛ إذا كان يريد بالفعل اقناعه بالدّليل البلاغي الذي يُفترض أنه " الدّليل الفلسفيّ بامتياز" على حد تعبير(بيرلمان- تيتكا). تكمن فرضية الباحث في هذا المقام؛ أولاً في أنّ التواصل الفلسفيّ عبارة عن بُنيةٍ خطّابيّةٍ تسمح بالاطّلاع على ذلك الرّباط الوثيق، الّذي يوجّد البلاغيات الفلسفية مع الجمهور المتلقّي للخطاب الفلسفيّ. إنه عبارة عن بنية خاصّة بطبيعة كلّ خطاب بلاغيّ، وثانياً في مُشاهدة كيف أنّ التّقنيات الحجاجية-كما صيغت في بحوث(بيرلمان- تيتكا)- تتمتع بفائدة عظيى لكّل من يريد تداول الخطاب الفلسفيّ.

في الواقع، تتعلق هذه المشكلة بالطريقة التي يتوجّه بها الفيلسوف نحو الجمهور المتلقّي للخطاب وكيفية رصد مختلف التّأثيرات الفاعلة التي يريد هذا الفيلسوف، عبر خطابه-نصّه، انتاجها في هذا المتلقّي-القارئ عينه، انطلاقاً من نظام القيم الذي يمتلكه عن هذا الجمهور الذي يتوجّه إليه بكتاباته، لرّبما تكمن أهمية هذه الدّراسة – في نظر الباحث – من جهة، لأن البلاغيات قد عرفت في القرن العشرين نهضة لا مثيل لها. ومن جهة أخرى، لأنّه طالما جري اعتبار الخطاب الفلسفي فقط من وجهة نظر بنيته النّظرية المنطقية-البرهانية، التي تختزل نطاق صلاحيته في الحساب والتجربة، وهذا طوال تاريخ الفلسفة الغربيّة الحديثة (اللّهم باستثناء بعض الخطابات المُهمّشة) ولم يحصل قطّ أن جري بحث هذا الخطاب من زاوية نظر الجمهور الذي يتلقّاه أو يقرّؤه، كما أنّ واقع الدّرس الفلسفي في مؤسّساتنا التعليمية العربيّة، ما يزال إلى غاية اليوم، يدور حول القطب النّظريّ المجرّد المحض للخطاب الفلسفي، أي حول البنية الصّوريّة القياسية اللّزومية للدّليل المنطقي التحليليّ باعتباره برهنه، اقتداءً ببراعة النموذج العلميّ-الرّياضيّاتي.

كلّ ما نتمناه ونجتهد في تبيّينه عبر صفحات هذه البحث المتواضع، هو الاقتناع أولاً ثمّ إقناعكم أنتم جمهور القراء (وجميع الباحثين المُفترضين) بمدى أهمية الالتفات إلى ذلك المنطق العملي، الذي يحكمُ إذعانية- تأييدية الجمهور المتلقّي للخطاب الفلسفي: قد تعلّمنا مع البلاغيّات الجديدة، أنّ الفيلسوف الذي يكتب نصّاً أو يؤلّف خطاباً استناداً

إلى المنهج التأملي المحض، بالانكفاء فقط على ضبط نص الاستدلال وإحكام قواعد البرهان... واضعاً نُصِبَ عينيه الحقيقة الموضوعية أو الميتافيزيقية فقط، ومن ثمة فإنه لا يُكَلِّف نفسه بالمرّة عناء الالتفات إلى من يُفترض أنهم سيقراؤن كتابه ويتحاورون معه... فإنّ هذا الفيلسوف لا شك أنه سيخطئ الهدف من رسالته في هذا العالم باعتباره «موظف الإنسانية» على حدّ تعبير (إدموند هوسرل). وسيكون خطابه، في نهاية المطاف، متوجّها نحو عدّمْ فراغ تواصلٍ. معنى ذلك نحو أسطورة تدعى "الحقيقة"!!

إذن من اللازم الإقرار بأنّ "تقنيات المحاجة"، سواءً ما تعلّق منها "بتقنية التّرابُط أو الوصل" أو "باستراتيجية التّفريق أو الفصل"، إنما يتركّز الاهتمام فيها على "الحجج" وهي معزولة بعضها عن بعض. أمّا أثناء الممارسة الخطابية الفلسفية، فإنّ تلك العناصر جميعها تشكّل كلاً متكاملاً وفي آن واحد تكون جميع وحداته في تفاعل داخليّ متواصل ومتنامي، وتفاعل خارجي بينها وبين المقام الحجاجي من جهة، ومن جهة أخرى، بينها وبين الحجج التي تتخذ الخطاب كموضوع، المهمّ من كل ذلك اعتبار الخطاب من حيث هو وحدة نظاميّة كليّة.

1. الحجج الصّالحة: بما أنّه يحوز على مادة شاسعة وفي آن واحد لا محدودة، فإن

الخطيب/الفيلسوف وهو يختار المقدمات والحجج التي يقوم بتشغيلها؛ سيكون موجّهاً بواسطة تصوّرين* اثنين هما:

أولاً: الواجهة في الطرح.

ثانياً: قوّة الحجّة في العرض.

نحن هنا، مع تصوّرين غريبين تماماً عن تقنيات البرهنة، "ذلك لأن كافة أدوات الدليل تكون هناك ذات قوّة واحدة، ومباشرة عندما يتم قبولها تسمح بالبرهان على النتيجة وتكون وجيهة." (1)

* انطلاقاً من كتاب "المفصل" (لبرلمان تيتكا) ص 611 يكون الاختيار حسبها، موجّهاً بواسطة قوّة الحجج، و تكون هذه القوّة، مرتبطة من جهة، بشدة إذعائية المتلقي للمقدمات و، من جهة أخرى بـ(الوزود/الصلة la relevance) أي مدى وجهة الحجة المعروضة.

¹ PERELMAN (Chaïm) 1968 ; Éléments d'une théorie de l'argumentation, PUB P.59

أما في المَحاجة، يتعلّق الأمر بتقويّة الإذعائيّة أو التأييد، أي إذعان الجمهور المُتلقي للخطاب بشدّة لمفاد أطروحة ما. فالوَجاهة هنا، تكون تبعاً لأنواع الجمهور المُتلقي للخطاب وللمنهجية التي يتعرّفون عليها ولأدوات الدّليل التي يقرّون بها. لدرجة أنّه من السّهل جداً القول متى تكون حُجّة ما واردةً أو غير واردة * أو ذات صلةٍ أو بدون صلة relevance/non-relevance أكثر من القول متى تكون وجهة/غير وجهة. يجري هنا تقدير قيمة الوجهة تبعاً لإمكانية الدّحض، لأنّ قوة الحجج في تغيّر حسب أنواع الجماهير المتلقية للخطاب وحسب الهدف من المَحاجة، حيث "يضل المبدأ الأعظم على الدوام ... هو التكيف مع الجمهور المتلقي للخطاب، مع الأطروحات التي يتقبلها، أخذاً بعين الاعتبار شدة هذه الإذعائية."⁽¹⁾ ينطبق هذا المبدأ أيضاً على عملية الدّحض-الإبطال، إلّا أنّ هذه تضطرّ هي أيضاً أن تأخذ بعين الاعتبار الحجّة التي يجتهد في صدّها ومحاربتها. رغم ذلك، فإنّه من الصّعب جداً وبكل دقّة، تحديد الفكرة-المثلى للقوّة، لدرجة أنّها عادة ما تستلزم تواجد كئيفيتين إثنيتين هما: الفعّالية والصّلاحية. هنا يتساءل (بيرلمان-تيتكا) مُستشكِلاً الأمر: "أ تكون الحجّة الدامغة - القويّة، تلك التي تُفحم بفعّالية كبيرة أم تلك التي يجب أن تنال اقتناع كل نفس عاقلة؟"⁽²⁾ "هل تشكل قوّة حجة ما، كيفية تقبل التوصيف أم أنّها معيارية؟"⁽³⁾ "هل تعود قوّة المَحاجة للدراسة النفسية أو المنطقية؟

إنّ فرضية (بيرلمان-تيتكا) في هذا الشأن هي أنّ قوّة الحجّة إنّما تكون معتبرة بفضل ضابطة العدالة التي تنصّ على أنّ كل:

"- ما كان قادراً، في شروط معينة، على الإقناع، سيظهر فيما بعد مقنعاً في خضمّ حالة مُشابهة أو مُماثلة."⁽⁴⁾ هي ذي بالضبط المنهجية التي تكون ضمن كل الاختصاصات، عاملة على معرفة وتحديد أدوات الدليل المقبولة. نفس الشيء الذي تقوم به كل واحدة من الفلسفات عندما تُفضّل أنماطاً معينة من الحجج وتستبعد أنماطاً أخرى. إنّ قوّة

¹ RERELMAN(Chaim) et TYTECA (L.O.) 2000 ; Traité de l'Argumentation ; p.612

² RERELMAN(Chaim) 1997; l'Empire Rhétorique ; p.154

³ RERELMAN(Chaim) et TYTECA (L.O.) 2000 ; Traité de l'Argumentation ; p.614

* الملاحظ أنّ فكرة الدّليل القويّ أو الحجّة الدامغة، عبارة عن تصور غامض جدّاً !! رغم ذلك كل خطيب/فيلسوف في أمس الحاجة إليه وهو يمارس نشاطه الحجاجي. تعتمد فكرة الدّليل القويّ على درجة إذعائية الجمهور المتلقي لكافة المقدمات المطروحة، وعلى عامل الوجهة في القول.

⁴ RERELMAN(Chaim) et TYTECA (L.O.) 2000 ; Traité de l'Argumentation ; p.616

الحُجَّة، تماما كما جئنا على وصفها تكون قادرة بحد ذاتها أن تُستعمل باعتبارها عاملا حجاجياً، عندما يريد الخطيب-الفيلسوف عن قصد المبالغة في تقدير قوة الحجج التي بحوزته، فإنه سيطمح إلى توسيع نطاقها. والتَقْنِيَّة المعكوسة، عندما يريد التقليل الإِرادي من مدى ونطاق مُحاجَّة ما، مع البقاء عند سقف النتائج التي تسمح بها. كما أنَّها أيضا تَقْنِيَّة فَعَالَة جدًّا، باعتبارها تُشيع الثِّقة وتُعطي انطبعا بالاعتدال في الميل، والإخلاص في العمل.

هناك تقنيات أخرى تسمح بإضعاف قوة الحجج، خصوصا تلك التي يطرحها الخصم المنافس، وذلك عند حصر موقعها-موقعتها - مثلا في سياق الشخص، شخص الخطيب -الفيلسوف وذلك بإعطاء انطباع بأن فعالية حجته إنما تعود فقط لمهارته في تقديم الخطاب وصياغته، وليس لما يُحايثها ويُلزِمها من قيمة- . أو التركيز على طابعها الساذج، المرتقب عند الجميع والمشهور عند العام والخاص. في الجانب المعاكس، عندما يتَّيم من جديد قلب الحُجَّة على صاحبها الخصم، فإنَّنا نستفيد من تلك القوة في الحجة التي يكون هو نفسه قد اعترف بها من قبل. في الأخير. إنَّ تلاقي الحُجج، إذا لم يحصل الاعتراض عليه، وإذ لم يُثِر من حوله الشُّكوك، قد يعمل على تمتين قيمة كل واحدة منها.

2. نِطاقُ المُحاجَّة: المدى أو اتِّساع النِّطاق، مشكلة تخص المُحاجَّة* فقط. من بين برهنتين اثنتين متلازمتين معا، تنطلقان من المقدمات عينها، لبلوغ النتائج نفسها؛ فإن البرهنة الأقصر هي التي ستكون الأجمل والأليق. لكن في المُحاجَّة يكون الأمر بالعكس. ما يجب هُوَ، التأكُّد من أنَّ المُقَدِّمات مقبولة من طرف الجمهور المتلقي للخطاب، كما يجب في بعض الأحيان تقوية وتمتين حضورها ورسوخها في نفوس القُرَّاء والمستمعين، الوقوف بدقة على معانيها وعلى اتِّساع نطاقها، بواسطة فعل تلاقي الحجج، عندئذ تستطيع طرح نتيجة ما. أما إذا كان الخطيب/الفيلسوف، أمام جمهور متلقي للخطاب

*في بحث نشره (بيرمان بالتعاون مع تينكا) تحت عنوان :

"الزمانية خاصة للمُحاجَّة سنة 1958، تعرض فيه الباحثان بعمق لمشكلة إنشاء النطاق تبعا للزمان، هنا يجري تقديم البرهنة باعتبارها خارج اللحظة وتعود للتأملية، بينما تكون المُحاجَّة زمانية وتداولية ومن حيث أنها غير ملزمة تكون مستعدة على الدوام لتلقي الدعم واستمداد القوة . فالحاسن التي تجلبها كثرة الحجج تعود في جانب منها إلى أن هذه تؤثر في بعضها البعض بواسطة التلاقي و التكميل المتبادل، وبفضل النقد المتواصل، وفي جانب آخر طبقا لتنوع و ثراء الجمهور المتلقي للخطاب.

غير متجانس، قد يتوصل إلى النتائج نفسها، لكن هذه المرة باستعمال حجج متنوعة ولا تكون متفاعلة فيما بينها، "بما أنه لا حجة تكون ملزمة، إنما يبدو أن كل واحدة تساهم في تقوية وتمتين الحاجة في مجموعها، نستطيع الاعتقاد بأن فعالية الخطاب تكون تبعا لعدد الحجج"¹

إلا أن واقع الأمر يثير لدينا بعض الصُّعوبات قبل أي شيء آخر؛ هناك، عند اتساع نطاق الحاجة، حدود طبيعية؛** من مستوى نفساني اجتماعي أو اقتصادي تحصر إطار الحركة الحجاجية المكتوبة أو الشفوية: لدينا على سبيل المثال؛ تكلفة طبع نصّ الخطاب في كتاب أو مجلة... ومدى وجاهة القُراء والمستمعين، أو لِحْجَانُ التَّحْكِيم. كذلك إلزامية ترك الكلمة لمتدخّل آخر في المحاضرة أثناء المُلتقيات المتنوعة، إلزامية العرض المؤثّق والأَمِين لأطروحة الغير في مقام الكتابة. ولدينا أيضا، من ناحية أخرى أن اتساع النطاق يعتمد كثيرا على نوع الخطاب المطروح وطبيعة الوظيفة الموكولة للجمهور المتلقي للخطاب. كيف يكون ذلك؟ يستطيع الخطيب/الفيلسوف، في بعض الأحيان التخلّي عن الحجج التي لا يقبلها الجمهور المتلقي للخطاب الكوني وقد يلجأ للاتِّكَاء على الخصوصيات الجزئية لجمهور خطاب "ضيق" أو محدود.

لدينا في الأخير، مشكلة مخاطر اتساع النطاق في الحاجة. فقد يحصل أنه في حالة أطروحة لا تكون موضع سجال، أي أنها ذات مقدمة مقبولة، ثمّ يأتي الخطيب/الفيلسوف ويريد التأسيس لها، عندئذ فإنه يخاطر بهدم تلك الأطروحة برمتها، لأنّ، "كل حاجة هيّ تعيين لشكٍّ ما".¹ أمّا إذ كان الأمر يتعلق بأطروحة هي موضع سجال، معنى ذلك أنها ذات نتيجة، فإن الخطيب/الفيلسوف، يكون عرضة أكثر فأكثر للمخاطرة، كلما ذهب إلى استعمال حجج من السُّهولة دحضها وإبطالها، وقد يحصل في جانب آخر، أن تتسبب حُجَّةٌ ما في توسيع نطاق الجمهور المتلقي للخطاب عند التَّعَرُّض لموضوع كان يعاني فيه - هذا المتلقي- انسدادا أو تفوقعا أو عطلا في التفكير.

في الأخير؛ يجب الملاحظة بأن استراتيجيّة التَّكْثِير في الحُجج والتهاون في الاشتغال عليها بعناية، ستنهي لا محالة، احتمال مَغَبَّة الوُقوع في خَطَر تَهَاوت بعضها ببعض، سواء عند المتلقي للخطاب أو عند شخص الخطيب/الفيلسوف عينه، وذلك إشارة بأنّه لم

¹ - RERELMAN(Chaim) 1997 ; l'Empire Rhétorique ; p.153

** يكون اتساع نطاق الحاجة محكوما بمحددات: الزمن. شدة الانتباه. طوبايط مؤسساتية. أعراف معنية.

² - RERELMAN(Chaim)1968 ; Eléments d'une Théorie de l'Argumentation ; PUB ; p.61

يمهل نفسه الوقت الكافي والجهد اللازم لصياغة خطابه. وبقي لنا أن نشير باختصار إلى كيفية اتِّقاءٍ وتفادي الأخطار والأزمات جرّاء اتساع نطاق الحاجة. فلكي يحى الخطيب/الفيلسوف نفسه من التأثيرات السلبية التي قد تعود عليه -إذا كانت الحجج سيئة- سلبا، يكفي القول أنها أُفْتُرِحَتْ عليه من طرف أحدهم، أو أنها ممّا قد فُرضَ عليه فرضا!! لتفادي اضطراب الحُجج المتهافتة وتجنُّب ملامة الجمهور المتلقي للخطاب، عادة ما يتم صَبُّ الخطاب في شكل "محاورة" فلسفية أوفي جنس أدبي خاصٍ هو المسرحية الفلسفية. وقد يذهب البعض الآخر إلى نوع الرواية الفلسفية. في النهاية، للاحتراس من مخاطر اتساع النِّطاق في الخطاب الحجاجي، يقدم لنا (بيرلمان تيتكا) آخر حِكْمَةٍ على لسان (بروديكوس - Prodicos) يجب أن يكون الخطاب دائما "على مقاس معتدل".²

3. ترتيب وحدات الخطاب الفلسفي:

اهتمت البلاغيّات الجديدة كثيرا بالأنظمة الخطابية وكيفية ترتيب وَحَدَاتِهَا عبر مختلف المؤسسات الثقافية والاجتماعية والسياسية، وقد لفت (بيرلمان- تيتكا) الانتباه إلى أن، "الخطاب يمارس على الجمهور المتلقي تأثيرا ملاحظا بحيث أنه عند الإجراء، فالمنحى الذي تتم عبره استجابة الجمهور المتلقي ومن خلال ما يكتبه من معطيات، يكون خاضعا على الدوام للتعديل. من هنا تأتي الأهمية المعتبرة في الحاجة، لذلك النظام المُرتَّب والمُعتمَد. هذا الذي يحقق في الواقع اشتراطية حقيقية للجمهور المتلقي¹. هنا أيضا، كما في السابق، تجري إثارة الثنائية المتضادة: البرهنة/المحاجة:

أثناء البرهنة الصّورية؛ هناك بالفعل نظام محدّد، بما أن الإجراء ينطلق من أوليات ليتوصّل في الأخير إلى المُبرهنات. إلّا أنَّ أهمية البرهنة محدودة النِّطاق؛ فالمتغيرات هنا تكون متعادلة. لا يهم كثيرا ذلك النِّظام الذي يجري عبره استعراض الأوليات وترتيب المراحل. بشرط أن تكون كل واحدة منها قد أُنجِزت بعد تطبيق ضوابط استنباط معتمدة".²

² - RERELMAN(Chaim) et TYTECA (L.O.) 2000 ; Traité de l'Argumentation ; p.61

¹ - PERELMAN(Chaim) et TYTECA (L.O.) 2000 ; Traité de l'Argumentation ; p.635.

² - PERELMAN(Chaim) et TYTECA (L.O.) 2000 ; Traité de l'Argumentation ; p.649.

أما في المحاجة، كل شيء بالعكس تماما. مشكلة النظام أساسية للغاية إذ من الممكن جدا تفحص تأثيراته على الجمهور المتلقي للخطاب، انطلاقا من وجهات نظر ثلاثة:

1.3 "المقام الحجاجي"³: بما أن كل خطاب حجاجي (سواء في صورة كتابية أو شفوية) يصدر دائما عن المقام الحجاجي الذي يتجلى في سياق اجتماعي وثقافي معطى، فإننا عادة ما نقول عن مقام ما بأنه حجاجي، عندما يعتمد الخطيب/الفيلسوف* إلى اتخاذ موقف حول موضوع**، ثم يقوم مجتهدا بصياغة مسار منهجي* حي يصل إلى إقناع الجمهور المتلقي لخطابه بالأساس المتين أو على الأقل بصلاحيته الموقف المطروح، ثم العمل على دفعه إلى تبنيّه وتطبيق مقتضياته القيّمة. زاوية النظر المتعلقة بالمقام الحجاجي تخص تلك المقدمات التي يجتهد الخطيب/الفيلسوف في توجيهها إلى الجمهور المتلقي للخطاب على نحو تدريجي، طمعا في ربح إذعانيتها. عادة ما تكون هذه المقدمات جنينية وابتدائية، لكن يجري إثراؤها عبر خط الخطاب، إلا أن الشّدة التي سيتم بها الإذعان لتلك المقدمات تخضع دائما للتعديل. " فنظام الحجج سيجري إملاؤه في أكبر جزء منه بواسطة الرغبة في استرجاع مقدمات جديدة؛ وتزويد الجمهور المتلقي للخطاب بعناصر معينة، ثم الحصول على التزامات محددة من عند أولئك الذين نتحدث إليهم"¹. بكل بداهة أثناء المناقشة وعبر الأسئلة/الأجوبة يبدو الدور الذي تلعبه الالتزامات أكثر وضوحا. فالخطيب/الفيلسوف يستطيع هنا الاعتماد - الاتكاء على هذه

³ - RIOUX (Marc Antoine) 2004 ; Texte Argumentatif ; la situation argumentative.

* قد يحصل اتخاذ موقف من موضوع ما، يكون محلّ سجال، دون ضرورة الذهاب بكل إرادة لإقناع الغير بتبنيّه. في هذه الحالة نحن لا نقدم سوى " رأيا " فقط. أمّا الفيلسوف؛ عندما يتخذ موقفا من موضوع مُشكّلي، فإنه يحرص بإرادة فائقة لجعل هذا الغير يذعن لأطروحته ويتبنّى مضمونها. في الخطاب الفلسفي يجري التأثير بقوة في معارف الجمهور المتلقي للخطاب والعمل على تغيير طريقته في إدراك الأمور وفهمه لظواهر الوجود، ثم التأثير في عقله العملي لإقناعه بتعديل سلوكه.

**موضوع الخطاب الحجاجي الفلسفي هو حقل "الاعتباريات" le champ du vraisemblable بكل تنوعه وتشعبه؛ إنه العالم الشّبه أو القريب من الحقيقي حسب مدرسة البلاغيات الجديدة. أما "العالم الحقيقي" فهو حكر على الخطاب العلمي المخكم بواسطة الدليل الصّوري والدليل التجريبي.

* يكون الخطاب الحجاجي/الفلسفي دائما عبارة عن إنتاج مسار منطقي صارم، يجري صوغه على منوال محدّد. و المسار الحجاجي في هذا المقام؛ هو مجموعة الوسائل المستعملة من طرف الخطيب/الفيلسوف الذي يتخذ موقفا، ويجتهد لنيل اعتراف الجمهور المتلقي بصواب أطروحته وفساد أطروحة خصومه.

¹ -- PERELMAN(Chaim) et TYTECA (L.O.) 2000 ; Traité de l'Argumentation ; p.651

الالتزامات الصريحة والمتتالية التي يبدئها المتلقي من حين لآخر. أما في حالة الخطاب المسترسل والنسقي، سيكون هو الوحيد الذي من شأنه اتخاذ الموقف.

2.3 - إشرافية الجمهور المتلقي للخطاب: من زاوية النظر هذه، يجري التركيز على تلك التأثيرات المتتالية التي يتلقاها الجمهور القارئ أو المستمع وتجعله مضطرا لإعادة النظر في أقسام الخطاب. لقد اهتمت البلاغيات التقليدية بـ:

- الاستهلال L'exorde

- السرد La narration

- الدليل La preuve

- الدحض/الإبطال la réfutation

- النتيجة la conclusion

- الخاتمة l'épilogue

فيما يخص استعداد الجمهور المتلقي للخطاب، قد جرى تقليديا الإلحاح على أهمية الاستهلال L'exorde حيث تضمن هذه الخطوة كافة الشروط التي تسبق فعل الحجاج، سواء ما تعلق بالكيفية، الكفاءة نزاهة الخطيب - الفيلسوف، أو بالمنفعة والفائدة المحصلة من وراء خطابه. كل ذلك من اللازم طرحه مسبقا وهو خطوة لا بُدّ منها، وسيكون على الدوام مُتكيفا مع الظروف المحيطة بالخطاب، الخطيب وبالجمهور المتلقي للخطاب وبالقضية المعالجة والمتنافسون المرتقبون.¹ أما خطوة السرد narration ، بمعنى عملية عرض الأحداث، الأمر الذي هو موضع اتفاق الجميع، نعتقد أنه من اللازم أن يأخذ مكانه في مستهل الخطاب، رغم وجود أنواع من الخطابات مثل التشاوري Délibératif والاحتفالي l'épidictique اللذان يستطيعان الاستغناء عنها، لما تكون الأحداث - الوقائع المعروضة معروفة على أكمل وجه أما في حالة كون خطوة السرد La narration أمرا لا بد منه فإن تأثيرها سيكون مختلفا بحسب ما تكون الأحداث - الوقائع مرافقة أولا لعملية تأويلية ما، " فالمكان المعطى للعناصر قد يعدل من دلالتها." ² إضافة

¹ - PERELMAN(Chaim) 1968 Eléments d'une Théorie de l'Argumentation ; PUB ; p.62 .

² - PERELMAN(Chaim) et TYTECA (L.O.) 2000 ; Traité de l'Argumentation ; p.654.

إلى وجوب كونها - على حد تعبير (أرسطو Aristote) وظيفيّة، " بمعنى اعتمادها على الغاية المطلوبة والوسيلة الأكثر فعالية لبلوغها".¹

عندما يتعلق الأمر بالمحاجة في حد ذاتها، هل تضطر لإتباع الأطروحة التي تقوم باستعراضها أم تلحق بها ؟

-أولا: إن الأطروحة التي لا تتطلب تهيئة خاصة للجمهور المتلقي للخطاب، من الواجب التعبير عنها عند الابتداء، لأنها ستقود وجهة الخطاب وتثير القراء أو المستمعين.

- ثانيا: قد يحصل وأن يحتفظ الخطيب - الفيلسوف بأطروحته ويتريث في صياغتها، وذلك سيكون في وسعه أن يمتلك حظوة أكثر وأفضل في تقديم قضيته التي قد تحضّا بقبول الجميع.

- ثالثا: سواء كانت المحاجة أسبق أو مرافقة لعبارة الأطروحة، فإن الحجج التي تتألف منها يجب أن تكون بحد ذاتها متضمنة لنظام معين. قد يحصل أن يكون هذا النظام مفروضا من فوق، على سبيل المثال؛ في حالة عدم فهم الحجج أو عدم قبولها وإذا لم يحصل أن طرحت مسبقا حجج أخرى معينة.

أما عندما يكون ترتيب وحدات الخطاب يعتمد كليا على الخطيب/الفيلسوف، ستكون لديه ثلاث إمكانيات مطروحة أمامه:

الأولى: يستطيع تقديم حجة بحسب نظام القوة المتنامية لكن هنا بالضبط قد يخاطر بخسارة استعداد الجمهور المتلقي للخطاب وهو يفتتح العرض بالحجج الرديئة.

الثانية: لكن عندما يتبنى الخطيب - الفيلسوف نظام القوة المتضائلة، فإنه يشرك الجمهور المتلقي للخطاب يحمل في ذهنه، بعد نهاية الخطاب، انطبعا سلبيا لا يكون في صالح الخطيب -الفيلسوف.

الثالثة: لهذا عادة ما يجري التشجيع على اعتماد النظام النَّسْطُوريّ (l'ordre nestorien)*

يفتتح فيه ويختم باستعمال الحجج الأكثر قوة، تاركاً البقية في الوسط.¹

¹ - PERELMAN(Chaim) 1997 ; l'Empire Rhétorique ; p.162

"أعطيت هذه التسمية بالرجوع إلى الملك الأسطورة بطل حرب طروادة الملك نسطور roi Nestor ، ملك ييلوس pylos هذا الذي اشتهر بأنه قد نظم على هذه الطريقة أفضل الجنود في مقدمة الجيش و في مؤخرته أما الجنود الأقل ضانا، قد وضعهم في الوسط.

¹ - PERELMAN(Chaim) 1997 ; l'Empire Rhétorique ; p.163 .

على الرغم من كل ذلك، تستدعي جميع هذه الاعتبارات أن تظل قوة الحجج هي نفسها مهما كان موقعها، الأمر الذي لا يتحقق في جميع الأحوال، وعليه، " يجب أن يكون ترتيب الحجج على النحو الذي يهبه [الخطاب] أكبر قوة ممكنة." ² على العموم، الأفضل أن يكون الافتتاح بالحجة التي تكون ذات قوة مستقلة عن بقية الحجج، لكن إذا وجد ثمة اعتراض خطير يُثقل على الخطاب، أول ما يجب على الخطيب-الفيلسوف، فهو العمل على إبطاله والإطاحة به. لكن في الواقع: " إنَّ كافة الضوابط التي قد يكون في استطاعتنا صياغتها في هذا الشأن تكون وظيفية، وما هذه المُسَبِّقات الأشد دقة سوى عملية تشفير لما هو ناجح في العادة، إلا أن هذا المعتاد الذي منه تُستلهم، لا يتمتع هو عينه بأي ثبات." ¹

3.3- استجابات الجمهور المتلقي للخطاب:

في الأخير، ومن زاوية نظرا ردود أفعال الجمهور المتلقي للخطاب، سيصبح النظام عينه مادة للتدبرية وهنا، تستطيع الهيمنة والتأثير مباشرة في نتيجة الحاجة، في هذه الحالة، من اللازم اكتناه نظام الخطاب ضمن ترتيب خارجي: ترتيب التتابع الزمني، عندما يجري عرض الأحداث وفقا لما يفرض نفسه من خارج الخطاب عموما، والترتيب المعتاد الذي تصبح أغلبية الخطابات من بعده مجرد خطابات له، والترتيب المتبني من طرف الخصم والترتيب المنقول من جزء خطاب على جزء آخر. كل إشارة تتعلق بالنظام ستسهل بكل بداهة عملية التمكن من الخطاب لدى الجمهور المتلقي، القارئ أو المستمع، سواء تعلق الأمر بمجرد إيهام بسيط أو بعملية قسمة صورية. لكن ونحن ندفع إلى أقصى حد بسؤال النظام هذا، نتساءل إن كان ثمة نظام مرتب، لا يطرأ عليه تغيير، ومستقل تماما عن الجمهور المتلقي، يفرض علينا نفسه من فوق ويكون مطابقا لطبيعة الأشياء؟؟

بشأن هذا "النظام الطبيعي" المزعوم هذا "المنهج الكوني" جميعنا على علم بأن (ديكارت Descartes) قد طلب استمداده من الرياضيات. لكن في هذا السياق، كيفما كان المنوال المشهر له، سيصل أخيرا إلى النتيجة نفسها، وهي تفريق المضمون عن الصورة. ثم الحط أخيرا من قيمة البلاغيات في العموم. لكن " فيما يَخْصُنَا نَحْنُ،

² - PERELMAN(Chaim) et TYTECA (L.O.) 2000 ; Traité de l'Argumentation ; p.661.

¹ - PERELMAN(Chaim) et TYTECA (L.O.) 2000 ; Traité de l'Argumentation ; p.664.

نُفَكِّرُ بأن نظرية ما في المَحَاجَّة لا تَضْطَرُّ إلى البحث عن منهج مطابق لطبيعة الأشياء، ولا تفترض كون الخطاب أثرًا-تحفة إبداعية تجد بنيتها في ذاتها، هذه أو تلك من المَفْهَمَتَيْنِ المتكاملتين معاً، تُفَرِّقان المضمون عن الصورة، مُتَنَاسِيتَانِ أَنَّ المَحَاجَّة هي هذا الكل المتوجه نحو جُمُهور مُتلقٍ مُحدَّد. بهذا فإنَّنا سَنَمُرُّ مِن مُشكلة التَّواصل إلى أنطولوجيا وإلى جَماليات، في حين لا يكون النِّظام الأنطولوجي والنِّظام العُضوي سوى انحرافا ما لنظام تَكْيُفي. هي ذي المتطلبات الملحة للتكيف مع الجمهور المتلقي للخطاب، وهي التي يجب عليها قيادة الوِجْهَة عند دراسة نظام الخطاب: " ستفعل عملية التكيف هذه مؤثرة، إما بطريقة مباشرة، أو بواسطة وضع في التساؤل لتدبرات المستمع في موضوع النظام. فما يفترض عنده أنه نظام طبيعي، تلك المماثلات التي يدركها مع متعضي- بيولوجي ما أو تحفة فنية ما، ما هو سوى حججاً كالبقية ؛ سيكون من واجب الخطيب أن يأخذ بعين الاعتبار وتحت العنوان نفسه كافة العوامل التي من شأنها إشراف الجمهور المتلقي للخطاب . سيكون في مقدور المنهج والصورة أن يحضيا معا بالقدر نفسه إلى حد ما بحسب ما يتعلق الأمر بجمهور متلقي لخطاب خاص، تقني أو كوني. إلا أن نظرية المَحَاجَّة التي قد تظم كافة هذه العناصر مجتمعة ستبتعد دائما عن موضوعها. فعملية التفريق بين المضمون والصورة التي أدت إلى سلخ الإنسانية عن تصور المنهج نفسه، قد أدت أيضا إلى التشديد على المظهر اللامعقول للبلاغيات. ستقوم وجهة النظر الحجاجية لا شك في ذلك، بإدخال أسئلة لطالما اعتبرت في العموم كما لو أنها تعود فقط لعملية تسريب وجهات نظر تتجلى على عقلانية سرية." ¹ في الختام، عندما يجري اعتبار الخطاب الفلسفي من حيث هو كلية شاملة تطرح في المقام الأول مشكلة اختيار الحجج. إن لوجاهة الحجج وقوتها، ميزتان لاختيارها تكون تبعا لعملية التكيف مع الجمهور المتلقي للخطاب. إن فعل المبالغة في تقدير قوة الحجج المتساقطة، تماما مثل فعل يخس قيمتها بشكل إرادي، يستطيع إذن التأثير بفعالية على الجمهور المتلقي للخطاب. ثم هناك مشكلة اتساع نطاق المَحَاجَّة. هذه التي تثبت إنها مفيدة جدا للتأثير في الجمهور المتلقي، لكن بشرط أن تأخذ بعين الاعتبار حدودا طبيعية معينة، مثل صبر وعمل الجمهور المستمع أثناء المحاضرة أو مدى التمرين على القراءة النقدية

¹ - PERELMAN(Chaim) et TYTECA (L.O.) 2000 ; Traité de l'Argumentation ; pp.672-673.

وكذلك مثل بعض الأخطار التي تنجم عند الاتساع في القول ؛ كالتشكيك في مقدمة ما أو الإقدام على إبطال نتيجة ما.

أما عن ترتيب وحدات الخطاب أو ما يطلق عليه اسم نظام الخطاب، فأهميته تكون وظيفته، فهو يعتمد على الهدف المتبع والأداة الأكثر فعالية لبلوغه، لكن من الوهم حقاً البحث عن نظام ساكن نمطي صالح لكافة طرق الخطابات.

4. النتائج ومناقشتها:

مُختَصِرُ القول، هو أنَّ المحاجة نوع من الشَّرَاكَة الَّتِي تنعقد فيما بين الفيلسوف والجمهور المتلقِّي لخطابه، سواء كان هذا الجمهور؛ حَمِيمًا (الفيلسوف يُمَرِّنُ/ يجاهد ذاته)، مُتَخَصِّصًا أو كَوْنِيًّا... فعند استحضاره المعلومة (س) باعتبارها مؤدِّية تماماً إلى معلومة أخرى هي (ع) فذلك لإلزام هذا المتلقِّي بقبول مفاد (ع) والإذعان له. تؤسِّس هذه الشَّرَاكَة لترابط فيما بين الذوات الفلسفية المُتَحَاجَّة. فإذا كانت المعلومة (س) تؤدِّي إلى (ع) أو تدعّمها بصورة معقولة، فإنَّ الجمهور المتلقِّي للخطاب يجد نفسه مُلْزَمًا ومُضْطَرًّا لقبول (ع)؛ ومعنى ذلك؛ تغيير سلوكه عند:

- التفكير أو الاعتقاد في (ع)

- القيام لإنجاز (ع)

- امتلاك الوعي بـ(ع)

إلاَّ أنَّ هذا التَغْيِير المنشود، لن يتحقَّق في واقع الحال سوى إذا كانت المعلومة (س) تؤدِّي إلى (ع) أو تدعّمها وَفَقًا لِضَوَابِطِ الْخِطَابِ الْحِجَاجِي Les règles du discours augmentatif، لذلك فإنَّ الدَّوْر الذي يقوم به الجمهور المتلقِّي للخطاب، أثناء هذه الصَّفَقَة transaction، لا يتمثَّل فقط في الاعتراف بالمعلومات والعلاقات المطروحة فيما بينهما (ضمنياً أو صراحة)، إنّما الَّذِي يجب عليه أيضاً، هو الوقوف عن بَيِّنَة وبالتَّحْدِيد عمّا إذا كانت (س) تؤدِّي إلى (ع) وَفَقًا لِضَوَابِطِ الْخِطَابِ الْحِجَاجِي تلك.

بأسلوب آخر؛ لَن تكون المُحَاجَة الفلسفيَّة مُكْتَمِلَةً وَمُنْتَهِيَةً طالما لم يتوصَّل جمهور الخطاب بعدُ إلى تحديد مَقْبُولِيَّتِهِ، sa acceptabilité بمعنى حصول اقْتِنَاعِهِ conviction بمفاد الخطاب الموجَّه إليه من طرف الفيلسوف. ولن تحصل ثَمَّة مبادلة، قبل أن يصل هذا الجمهور عينه، إلى إصدار حكم، يَنْصَبُ مباشرة على قيمة هذه المُحَاجَة:

كأن يقبل ويقول في أعماق وعيه: "نعم هكذا تسير الأمور في هذا المقام..." أو "هذا معقول جداً..." أو "هذا تعليل جيّد..."

وقد يحصل أن يأخذ هذا الجمهور موقف الرافض. ويقول: سرّاً أو علانية: "ما هكذا تسير الأمور في هذا المقام..." أو "ما هذا بالتّعليل المعقول..." أو "الأساس غير متين..."! وربما يبني حكمه على تقديم تحفّظات، بحيث يقول: "نعم هكذا تسير الأمور..." ولكن هناك..." أو "هذا معقول...! شريطة أن..."

فضمن أيّ مُحاكاة فلسفيّة، تكون مقبولية نتيجة ما، بما في ذلك قوّة/ضعف الحجج، معتمدة كلياً على؛ المعلومات المطروحة، العلاقات، وعلى المُقتضيات الحجاجيّة المقدّمة، لأجل قيادة تلك المقبوليّة للنّتيجة، على ذلك المسار المُهيّأ، وكذلك الرّابط بين التّعليلات والنّتيجة. لهذا السّبب لن يكون في استطاعة الجمهور المتلقّي قبول مفاد المعلومة (ع) باعتباره حاصل مُحاكاة سوى بعد التّفحص النّقدي للعناصر التي تتركّب منها الصّفقة الحجاجيّة la transaction argumentative ولن يثدّر هذا الجمهور المتلقّي على قبول نتيجة محاكاة ما، إلّا بعد أن يسفر التّفحص النّقدي إلى أنّ العناصر المستخدمة هيّ بالفعل ما يناسب هذا المقام بالذّات.

يتمثّل هذا التّفحص النّقدي في:

أولاً؛ إنه الاشتغال بتحديد ما يكون هوّ بالذّات مَوْضِع السُّؤال المطروح (أي ما يجري الكلام عليه، والمَوْضِع lieu، المقام situation أو الحقل الَّذي انطلاقاً منه يجري الخطاب) ثانياً؛ إنه العمل على تحديد ما يجري قوله والهدف الَّذي لأجله يُقال (هل هو إفحام، تفسير، دليل أم تبرير...؟)

ثالثاً؛ إنه جهد تصنيفيّ يجري فيه تحديداً، الوقوف على جهة تبليغ المعلومات المطروحة باعتبارها دعامات المُحاكاة. فبناءً على المقام أو الحقل، ثمّ الغاية التي يريدُها الفيلسوف، يجري الوقوف على ما إذا كانت هذه المعلومات أو الأحداث المقدّمة، باعتبارها دعامات؛ يُطلب إلى أيّ مدى تكون: مقبولة؛ واضحة؛ مُحكمة؛ دقيقة؛ كافية العدد؛ ووجيّهة.

على هذا النّحو مثلاً، إنّ الفيلسوف الَّذي يقول لجمهور خطابه auditoire: "لا بدّ أن تخرج هذه الأُمّة من أزمتها، لأنّ شعبيّا يتمتع بثروة رمزيّة إيجابيّة هائلة."

يقتضي هذا الحُكْمُ بأن يكون لشعب هذه الأمة فعلاً ثروة رمزيّة هائلة وإيجابية. لكن، إذا لم يكن لهذا السَّعْب في واقع الحال هذه الثروة الرَّمْزيّة المُعْنِيّة، فإنَّ حادثة le fait le خروج من الأزمة لن تكون مقبولة ولن تستطيع أن تكون محسوبة باعتبارها تعليلاً. ضمن هذا المَقَامِ التَّفَاوُلِيّ situation interlocutive فإنَّ المَعلومَتَيْنِ؛ "تخرج الأمة من أزمتها." و"يملك الشعب ثروة رمزيّة إيجابية هائلة." تقتضيان الوضوح الكافي، الإحكام والضبط، من أجل تفادي سوء الفهم (من الممكن دائماً المطالبة بإحكام أكثر وتوضيحات: مثلاً؛ المقصود بالأزمة، الثروة الرمزيّة الإيجابية...) يتمثّل التَّفَحُّصُ النّقْديُّ أيضاً في طلب ما إذا كانت:

- العلاقات المطروحة بين تلكما المَعلومَتَيْنِ هل تكون: علاقة سببية، علاقة مماثلة، علاقة تعميم، علاقة رمزيّة والمقتضيات présuppositions التي تضيف عليها الشَّرْعِيّة، إنّما هي حقّاً ما ينبغي الأخذ به لقيّادة العبور من المَعلومَة (س) إلى المَعلومَة (ع) أو فقط لأجل دعم (س) ضمن هذا المَقَامِ التَّفَاوُلِيّ. ثمّ، إنّ استعمال هذه العلاقة أو تلك، لأجل العبور من معلومة إلى أخرى، لا يعتمد فقط على المَقَامِ أو المجال، إنّما أيضاً، على واقع كون كلّ علاقة حجاجيّة على حدة (سببية، مماثلة، تعميمية، إشارّة) تستدعي ضوابط خاصّة تعمل على تحديدها من حيث هيّ كذلك. في الوقت نفسه، أنّ هذه الضوابط règles تعمل على تحديد ماهية شروط استعمال هذه العلاقة بالذّات دون غيرها. لذلك، عند ممارسة التَّفَحُّصِ النّقْدي في إنتاج وتلقّي الخطاب الفلسفيّ لبلوغ الإقناع/الاقتناع بمفاد دليل حجاجيّ ما، فإنَّ الجمهور المتلقّي للخطاب سيخطر بباله أن يتساءل عمّا إذا كان استعمال هذه العلاقة الحجاجيّة ملائم أو لا.

بالنسبة للمثال المضروب أعلاه، "ستخرج الأمة من الأزمة لأنّ الشعب يمتلك ثروة رمزيّة إيجابية هائلة." من التساؤل، هل توجد علاقة ما سببية فيما بين حادث "امتلاك السَّعْب للثروة الرَّمْزيّة الإيجابية الهائلة" وحادث "خروج الأمة من الأزمة"؟ وعمّا إذا كانت هذه العلاقة كافية تماماً لأجل تَبْيرِ هذه النُّبوءة الفلسفيّة بأنّ "الأمة ستخرج من الأزمة." بأسلوب آخر، هل في استطاعة هذه العلاقة أن تكون معتبرة (أي ذات حُمولة حجاجيّة) لتعزيز المعلومة التي تفيد بأنّ "الثروة الرَّمْزيّة الإيجابية" هيّ التعليل ضمن هذا المَقَامِ الحجاجي الفلسفي؟ كذلك من اللازم التساؤل، على أيّ شيء تقوم أو تتأسّس هذه العلاقة ضمن هذا المَقَامِ بالذّات؟

على سبيل المثال؛ هل يوجد في فلسفة التاريخ وسُنَن تاريخ الأمم دليل إثبات بأنَّ حادثة الثروة الرَّمزِيَّة الإيجابية/الخروج من الأزمة هيَّ، زوجٌ متلازم الطرفَيْن، بحيث لا انفصام لهما في مجال تكامل الحضارات؟ أو أنَّ الأمر لا يتعلَّق سوى بتجربة الفيلسوف التي سمحت له الإقرار بأنَّ الأمم الَّتِي تتغلَّبُ على الأزمات هيَّ الأممُ الَّتِي تمتلك شعوبها ثروة رمزيَّة إيجابية؟ أو أنَّ ذلك حادث نتيجة كونه موضعاً مشتركاً *lieu commun*، إذ الجميع يعلم فيه بأنَّ التغلَّب على الأزمات يقتضي تفعيل الرأسمال الرَّمزِيّ الإيجابيِّ. أخيراً، ربَّما فقط لأنَّ رؤية الفيلسوف المعنويَّة أو المثاليَّة الَّتِي تقول بأصالة الوجود الرَّمزِيّ للأمم هيَّ ما سمح له الإقرار بأنَّ الرأسمال الرَّمزِيّ الإيجابيِّ جهاز مناعة لشعوب الأمم ضدَّ الاضمحلال الناتج عن الأزمات.

إذن؛ إنَّ التفحُّص النقديَّ للمحاكاة الفلسفيَّة من شأنه أن ينصبَّ على ما يلي:

- موضع السؤال
- القول الجاري
- الوضوح، الإحكام، الدقَّة، الوجاهة، الكفاية.
- الملاءمة، كفاية العلاقات الحجاجية والمقتضيات المؤسَّسة لها.
- مطابقة المحاكاة الفلسفيَّة للضوابط الخاصَّة بالعلاقات المستعملة.
- نعم؛ ينصبُّ التفحُّص النقديُّ الفلسفيُّ على جملة العناصر الَّتِي تُكوِّن صرح المحاكاة، إلَّا أنَّه مضطَّرٌّ لإفراد اشتغال خاصٍّ على:
- 1- العلاقات الحجاجيَّة التي تحكم الخطاب.
- 2- المُقتَضِيَّات المؤسَّسة أو التي تمنح شرعيَّة استعمالها.

خاتمة:

لا تكون محاكاة فلسفيَّة ما، مَعْقُولَةً *raisonnable* لكي تصبح مقبولة *acceptable* سوى بشرط أن تكون المُقتَضِيَّات التي يحدثها الفيلسوف (أو يجب عليه أن يحدثها) مُستَسَاغة داخل المقام أو حقل الاختصاص المعنويِّ؛ بواسطة الضوابط المُخصَّصة للعلاقة الحجاجيَّة المعتمدة. بأسلوب آخر؛ لن تستطيع المعلومة (س) أن تكون تعليلاً لصالح المعلومة (ع) إلَّا إذا كانت المُقتَضِيَّات الواجب إحداثها لجعلها مقبولة بواسطة المقام أو المجال ومُطابِقةً للضوابط المُميِّزة للعلاقات الحجاجيَّة المطروحة.

تسمح ضوابط المحاجة الفلسفية بأن لا تكون المقتضيات التي يعتمدها الفيلسوف (أو يجب عليه أن يعتمدها) كيفما اتفق، إنما لن تكون سوى تلك التي يجري قبولها داخل المقام أو الحقل المعنوي وبواسطة العلاقة الحجاجية المتداولة. إذ يكفي أن تكون معلومة ما غير معتمدة أو غير مطابقة، لكي تجعل المحاجة الفلسفية مرفوضة؛ الاجتهاد في استخراج بداهة تلك العلاقات الحجاجية والمقتضيات المؤسّسة لها أو المشرّعة لها ضمن هذه "الصفقة" الخطابية تسمح بعملية رصد؛ كافة الثغرات، الهفوات والخروقات المُنْدَسَّة فيها.

بهذه الطريقة، إنها تزوّدنا بمسوغات أو دعامات رفض "الصفقة" أو التحفّظات التي يكون في استطاعة الجمهور المتلقّي للخطاب الفلسفي أن يثير من حولها. في الوقت نفسه، إنّ عملية استخراج هذه البداهة تشكل بحد ذاتها إطلاقاً لشرارة الرّدّ المُعلَّل. بأسلوب آخر، إنّ التّفحّص النّقديّ يحدّد مدى مقبولية l'acceptabilité (مع متغيراتها الأكثر أو الأقل) "الصفقة" الحجاجية الفلسفية.

بدون تفحّص نقدي، لا وجود لمناقشة جدّية ولا مداولة فكرية ولا مرافعة قضائية ولا لتبريرية منطقية ولا حتى لتفسيرية شبه-علمية... و عوضاً عنه كلّ ما يترسّب هناك، مجرد التعبير عن رأي، عن فكرة دارت بالخلد، عن رغبة جامحة... كل ما هناك تبليغ أو إغراء وتطويع. لا وجود لمحاجة فلسفية قط؛ الطّغاة والظّلاميون، الموائد المستديرة للمستبدين، والدّهنية العسكرية... سيعوّضون بدليل سلطانهم الجائر، دليل العقل البلاغيّ المتفتّح والمتسامح.

قائمة المصادر والمراجع:

1. PERELMAN (Chaïm) ; Eléments d'une théorie de l'argumentation, Bruxelles, PUB, 1968.
2. PERELMAN (Chaïm) avec Lucie Olbrechts-Tyteca: Traité de l'Argumentation, la nouvelle Rhétorique, Éditions de l'Université de Bruxelles, 1958 ; nlle éd. 2009
3. PERELMAN (Chaïm); l'Empire Rhétorique, ET Argumentation, nlle éd., Vrin, paris, 1997.
4. RIOUX (Marc Antoine) ; Texte Argumentatif ; la situation argumentative, 2004
5. MENDENHALL (Vance) ; Une Introduction à l'Analyse du Discours Argumentatif ; les presses de l'université d'OTTAWA, 1993.